الاتجاه الاجتماعي في مديح القرن الخامس الهجري

الأستاذ الدكتور
حاكم حبيب الكريطي
المدرس المساعد
محمد ظاهر عفتان العارضي
جامعة الكوفة - كلية الآداب

الاتجاه الاجتماعي في مديح القرن الخامس الهجري

الأستاذ الدكتور
حاكم حبيب الكريطي
المدرس المساعد
محمد ظاهر عفتان العارضي
جامعة الكوفة - كلية الآداب

المقدمة

كان للاتجاة الاجتماعي نصيباً وافراً من مديح القرن الخامس الهجري ، بوصفه ظاهرة اجتماعية تمثل في حقيقتها غاية جماعية لا فردية (١) ، وللعلاقات الاجتماعية أثر في نفس الشاعر ، فهو يقيم هذه العلاقات مع أبناء مجتمعه ويصوّرها في شعره وفي المدح منه خاصة ، والإنسان ـ كما نعرف ـ مركبٌ من مجموعة خلق ، والأخلاق المحمودة التي تجسّد القيم الأصيلة هي التي يتناولها الشعراء في شعرهم كثيراً ، فشعر كلِّ أمّةٍ يعدّ ((صورة منتزعة من واقعها وأحداثها تستلهمه من تجاربها وصراعها مع ذلك الواقع وتلك الأحداث))(٢).

والشعر ظاهرة اجتماعية؛ لأنّ اللغة هي وسيلته في أداء رسالته الإنسانية ، واللغة ظاهرة اجتماعية فيكون الشعر ظاهرة اجتماعية أيضاً ، فضلاً عن أنّه معرفة والمعرفة لا تظهر إلا في أحضان المجتمع .

إذن فالشعر الذي يعد أحد الأجناس الأدبية هو ((نشاط اجتماعي بالدرجة الأولى ، والشاعر بشر يعيش مع البشر ، يؤثر ويتأثر بالمجتمع ، ومن ثم أن ظروف نشأة القصيدة ظروف اجتماعية تحمل الخبرة السابقة وتبعث خبرة جديدة)) (٣) ، ومن هنا يمكن التأكيد على أن أفكار الشاعر وآرائه منتمية بطبيعتها انتماءً حميمياً إلى الجماعة التي يعيش فيها ، ونابعة بطبيعتها

من البيئة التي تشرب عاداتها وتقاليدها ، وهذا يلزم الشاعر بإظهار هذا الانتماء للمجتمع من خلال التواصل بالشعر لاسيما المديح ، لذلك يكون أمام الشاعر مجال فسيح من العلاقات الإنسانية النبيلة ، والتي تتجسد بشكل عام من دوافع الأبوة والأخوة والصداقة والقرابة ، أو من دوافع الانتماء إلى فكرٍ معينٍ أو ثقافة ماكالأدباء والعلماء والكتّاب ، والشاعر في ذلك كلّه يبتعد في هذا الاتجاه عن أجواء السياسة ورجالها من ذوي السلطان ، فله أجواء يحرر بها نفسه من قيود القول أمام رجالات الدولة فيكون حذراً في اختيار المعاني والألفاظ المناسبة .

في حين إنّه قد يقترب من الواقع وينقل ما يراه في ممدوحه ، أو ما يريد من ممدوحه أن يتحلى به ، فيؤدي الشعر هنا وظيفة اجتماعية تساعد على إبعاد الصفات السلبية عن أفراده ، وتغريهم بالتمسك بقيم العرف الاجتماعي التي أقرّها الإسلام ، فصارت عناوين بارزة في الشخصيات الاجتماعية .

المبحث الأولّ

المديح الأُســري

تعدّ الأسرة وحدة اجتماعية تتكون من مجموعة من الأفراد ، وهي النواة الأولى للمجتمع ، فللأسرة وظائف عديدة ومتنوعة يقوم بها كلُّ فردٍ من أفرادها تجاه الآخر من توفير الاستقرار والأمن النفسي والاجتماعي والاقتصادي للأفراد ؛ لذلك أصبحت العلاقات الأسرية من أبرز روافد تكوين المجتمع ورسم علاقاته .

وقد تصدّى الشعراء لتلك العلاقات ودارت في شعرهم ؛ لما وضع الله بهم من رأفةٍ تجلّل أفراد الأسرة ، لاسيما المديح والرثاء والوصف والفخر وغيرها من الأغراض الشعرية التي قيلت في الأسرة ، وبخاصة في الآباء لما لهم من ظل يسبغ على تلك الأسرة ، وخصّهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسانَ

بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾(٤) ؛ لذلك نجد من خلال استقرائنا لشعر القرن الخامس الهجري ، تداول الشعراء للمديح الأسري في الآباء والأخوان والأخوال وغيرهم ، ومن أبرز شعراء هذا القرن الشريف الرضي الذي شغل الشعر الأسري مساحة واضحة من شعره ؛ لاعتزازه الكبير بانتمائه إلى هذه السلسلة من البيت العلوي ، إذ مدح أباه بقصيدة طويلة ، قالها في العيد وهي قصيدة طويلة يقول فيها ﴿الطويل﴾ :

هنيئاً لك العيد الجديد ، فإنّه ... يسلُّ لك الإقبال عضب المضارب
وعزّك باقٍ لا يزلزل طوده ... وكلُّ المعالي بين ماضٍ وآيب
وما راقت الأعياد إلا بغرّةٍ ... تبلّج عن نورٍ من المجد ثاقب
وكيف يسرُّ الفطر من عاش دهره ... بعنوان معروف الجناجن شاحب
إذا ما امرؤ لم يكسه الشيب عفّةً ... فما الشيب إلا سبة للأشائب
أنا القائل المرموق من كلِّ ناظرٍ ... إذا صلصلت للسامعين غرائبي
وما صنت شعري عنك زهداً وإنّما ... هو الدرُّ لا يمري بغير الحوالبِ
ولي من قريضي منية لضميره ... ولكنّي آبى دنيّ المحاسب
وما كل شغلي بالمقال أروضه ... ولا أنا بالقوّال ضربة لازب (٥)

تعد المناسبات مصدراً من مصادر الشعر لا سيما المديح منه ، إذ استثمر الشاعر هذه المناسبة المباركة عند المسلمين فمدح أباه بأحسن ما يكون من الشعر ، مظهراً مكانته في المجتمع ، فهو صاحب المعالي والعزّ الأزلي الذي لا يتزلزل على مدى السنين ، إذ أبان لنا النصّ أنّ الممدوح رمزٌ ومثالٌ يقتدي به الشاعر ، فهو يوظّف شعره لإبراز تلك الشخصية التي يتباهى بها العيد .

والشاعر وصف أباه الذي حاز كلّ معاني الرفعة من الكرم والشجاعة

والعفّة والإباء على الرغم من كثرة الحاسدين له ، لكنّه يبقى علماً يعتدّ به في الأزمان كلّها ، وكما هو مشهور فإنّ والد الشريف الرضي كان نقيب الطالبيين ويشغل مكانة مرموقة في الدولة والمجتمع ، وكان محترم من قبل المذاهب الإسلامية في وقته .

وقد وظف الكناية في أغلب مواطن النص ، منها قوله (وعزك باقٍ لا يزلزل طوده.....) ، كناية مكانة ممدوحه التي لا يمكن أن تزول أو تزلزل ، وقوله (وما راقت الأعياد إلا بغرّةٍ.....) ، كناية عن يُمن ممدوحه وبركة وجوده ، كما وظف أسلوب الطباق في قوله (ماضٍ ، آيب) ؛ دلالة على احتفاظ ممدوحه بالمجد على الرغم من زوال أمجاد وعودتها .

وقد مدحه الشاعر بما جاد عليه خاطره من الشعر المنتخب الجيد الذي يليق بتلك الشخصية العظيمة ، وفي نفس الشاعر مطامح الرياسة والقيادة فهو يعبر عمّا تجيش به نفسه أمام أبيه ، ويلحظ من خلال هذا النصّ أنّ الشاعر قد وفّق في ربط الأبيات حتى بدت متماسكة مكونة وحدة واحدة من خلال حروف الربط (الواو ، الفاء) وغيرها وهذا يدلُّ على صدق العاطفة وتلازمها في نسق كلامه ولولا مراعاته لهذه الروابط لما تمكّن هذا التمكّن في نسج هذه الصورة المدحية(٦) .

وقد مدح الشريف المرتضى أباه ، مفيداً من مناسبة حلول شهر رمضان المبارك قائلاً ﴿المتقارب﴾ :

محـلّ الغيـوث ومـأوى الليـوث وبحـر النـدى ومكـان الغنـى
وكـم قـد نعمـت بـه مـا اشتهـ ـيت مشـتملاً بـإزر الصـبا
وكـم وردتـه ركـاب فأصـدرتها ببلـوغ المنـى
فتـىً لا تعثـر آراؤه بطـرق المكـارم صـمُّ الصـفا

يجـــود بمـــا عـــزّ مـــن مالـــه فـــإن ســـيل أدنـــى عـــلاه أبـــى
ويومـــاه في الفخـــر مســـتيقنان فيـــوم العطـــاء ويـــوم الـــوغى
يفـــيض بهـــذا الجزيـــل الحبـــاء ويقـــرى بهـــذا القنـــا في القـــرا(٧)

لقد أفاد الشاعر من الأساليب البلاغية في وصف ممدوحه ،إذ وظّف الكناية في قوله (محلّ الغيوث ، مأوى الليوث ، بحر الندى ، مكان الغنى)، كناية عن جود ممدوحه وسخائه ، وقوته وشجاعته ، وقوله (وكم وردته ركاب العفاة....) ، كناية عن سماحته وقدرته على العفو ، ووظّف الاستعارة في قوله (فتى لا تعثر آراؤه بطرق الكرم صمّ الصفا) ، أيّ أنّممدوحه صائب الرأي سديد القول ، لا يصدّه عن بلوغ المكارم الصخور الصلدة ، دلالة على أنّ هذه الصفات أصيلة في ممدوحه لا طارئة عليه ، وهذه صفات قدبثّها الشاعر مشحونة بالفنّ البياني ؛ ليعبّر عمّا يكمن في خلجات نفسه تجاه الممدوح ،بحلية بلاغية تزيده روعةً وجمالاً (٨)،ونجد أنّ مدح الشاعر هو تأصيل لصفات العربي الأصيل التي يتصف بها أبوه من الكرم والشجاعة والندى والرأي السديد ؛ لذلك تغلّب على كلّ أقرانه وحاسديه بتلك الصفات .

لقـــد ألصـــقتني بالحســـين خلائـــق أعـــدن قـــديم المجـــد غضّـــاً مجـــدّدا
هـــو المـــرء إن قـــل التقـــدّم مقـــدم وإن عـــــزّ زاد في العشـــــيرة زوّدا
أبـــيٌّ علـــى قـــول العـــواذل سمعـــه إذا أعرضـــوا دون الحفيظـــة والنّـــدا
وأروع مـــن آل الـــنبي إذا انتمـــى أصـــــاب عليـــــاً والـــــداً ومحمّـــــدا
كرام سعوا للمجد من كلّ وجهةٍ كمـــا بســـطوا في كـــلّ مكرمـــةٍ يـــدا
...جريءٌ إذا ما الأمن أخلى جَنانه فـــإن رابـــه ريـــبٌ تـــولّى وعـــرّدا
وأنـــت الـــذي لا يـــثلم الرعـــب شـــدّه وقـــد لفّـــت الخيـــل الســـواد المشـــرّدا

هنيئـاً لـك العيـد المخلّـف سـعده عليـك مـن النعمـاء ظلّـاً ممـدّدا(٩)

وللمرتضى قصيدة في مدح أبيه بمناسبة عيد الفطر ، يقول فيها ﴿الطويل﴾:

لقد تفنن الشاعر في وصف ممدوحه ، إذ بدأ بوصف أخلاقه بأنّها قد أعادت غضاضة المجد بعد أن أصبح تليداً ، ومن خلال ذلك يلج الشاعر إلى حشد غاية جهده ليدرك أقصى غاية للمعاني المدحية العالية والماثلة في تقدمه ضمن العشيرة التي كانت تعدّ مرتكزاً مهماً في حياة المجتمع لاسيما المتقدّمين من الرجال ، فنسب الممدوح يعود إلى ذِروة الشرف ، وهو الرسول محمد (ﷺ) والإمام علي (عليه السلام) ، فهو من كرام بلغوا المجد بطرقه كلّها ؛ لفضلهم وتقدّمهم على الرجال كافةً .

والشاعر وجد من المعاني الدينية حافزاً مؤثراً لنمو الصورة ، وكذلك القوّة التي يتصف بها الممدوح ، مبتدعاً صورة رائعة يؤطرها المنهج الأخلاقي والاجتماعي في حالة السلم ، ومروعة في حالة الحرب ، وصور هذا النص قد ارتبطت مع بعضها على نحو يتألف من الجميع شكلٌ صوريٌّجميلٌ ، يظهر صورة الممدوح بتفاصيلها كلِّها(١٠) ، ونجد أنّ هذا المديح تجلّى من خلال عاطفة الشاعر التي أحسّها تجاه هذا الواقع الذي يشعره بممدوحه ، ويعكس رؤيته له وردَّ فعله عليه الذي يتحكّم في عمق الصورة الفنية (١١)، وقد زخر النص بأسلوب الكناية التي وظفت لإبراز صفات الممدوح من الخلق الكريم ، والنسب الشريف ، والشجاعة الفائقة ، كقوله (أصاب علياً والداً ومحمّدا) ، كناية عن نسب الممدوح الشريف .

وفي مناسبة أخرى يمدح الشريف المرتضى أباه ، وهو يوم عيد النحر يقول فيها ﴿الطويل﴾ :

ولولا ابن موسى ما اهتدين لطيّه ولـو وصـلت أبصـارها بـالبوارق

فتـىً لا يجـمُّ المـال إلا لمغـرمٍ ولا يسـتعد الـزاد إلا لطـارق

تجـاوز آمـال العفـاة وأشـرفت يـداه علـى فـيض الغيـوث الـدوافق
إذا هـمَّ لم يسـترجع الريـث همّـه ولم تعـترض حاجاتـه بـالعوائق
يحـيط بأقطـار الأمـور إذا سـعى وكـم طالـبٍ أعجازهـا غـير لاحـق
ومـا ضـلّ وجـه الـرأي عنـه وإنّمـا تقاضـاه مـن وجـه الظنـون الصـوادق
وقـد سـاورته النائبـات فأقشـعت ومـا حظيـت إلا بنهلـة شـارق
لـك الفعـلات البـيض مـا غـضّ بتـالٍ ولم تغلـب عليهـا بسـابق
معـالم تستقصـي الثنـاء وتنتمـي إلى شـرفٍ فـوق السـماكين سـامق
ولما رأى الأعـداء سـلمك مغنمـاً خرقت لهم الحرب سحب الصواعق
ضـراب كشـقّ الثـاكلات جيوبهـا وطعـن كـأفواه المـزاد الفواهـق (١٢)

صوّر الشاعر ممدوحه الهادي الذي يضيء الظلام كأنّه البرق الذي يخرج من السحائب ، وهذا تشبيه يبرز مكانة الممدوح ، وأنّه كالنور الذي يشقّ الظلمات ، من ثم ينصرف الشاعر لتعداد صفات ممدوحه (أبيه) يبدؤها بالكرم الذي تفرّد به ، فهو يهتزُّ للعطاء اهتزاز الغصن الرطيب ، وهو يأتي المكارم بوعيٍ ورغبةٍ ، ولا يتأسف على المال الذي يبذله لمن يحتاجه أو يفتدي به المغرمين ، وهذا يدلُّ على على السِّعة وحبِّ الناس ؛ لذلك يطرقه العفاة والراغبون كي ينتهلوا من كرمه الذي أشرقت به يداه على الغيوث الدوافق ، وهذه أعلى قيمة للكرم ، فهو رجلٌ كريمٌ وذو سماحةٍ ، كما أنّه ذو عزمٍ وحنكةٍ في تقدير الأمور .

فرجاحة عقله وصواب رأيه وحسن إدارته تحيط بالأمور التي يعجز عن إدراكها لاحقٌ ، ويلحظ أنّ الشاعر قد تناول شخصية الممدوح من جوانب عديدة، فهو كريمٌ معطاءٌ، وصاحبُ عقلٍ راجحٍ ، وشجاعٌ، وذو جلدٍ وصبرٍ ،

وذو نسب عالٍ ، فأصبحت معالمه تضاهي النجوم السوامق وهذه الصفات تجعل منه شخصية قيادية توجب الافتخار والاعتزاز بها ، فأفعاله كريمة كلّها.

وقد انتهل الشاعر تلك الصفات من الموروث الشعري القديم في المديح ، فتلك الصفات ملازمة لشعر المديح في الغالب ، وهي الصفات نفسها التي مدح بها الشاعر الجاهلي والإسلامي ، وقدكانت قصيدته متماسكةًمتلاحمةً في معظم أبياتها حتى بدت أجزاؤها متلاحمة بطريقة أشبه ما تكون بالصهر(١٣) ، وهذا التماسك والتلاحم فيها ناجمٌ عن قوة تمسكه بأبيه ، فكلُّ سجيةٍ ترشد للأخرى وكلُّ صفةٍ تقود لصفةٍ أعلى ، وهذا يُبين الاتجاه الاجتماعي في شعر المديح وأثره في بناء العلاقات الأسرية وتماسكها .

ومن صور المديح الأسري الذي حظي بعناية الشعراء في القرن الخامس الهجري مديح الأخوان ، إذ كثر الشعر الذي قيل في مديح الإخوان ويصف علاقة الإخوة وما يكتنفها من روابط الحبّ ووشائجه والود والوئام وعلاقات التألف والانسجام ، فقد تنوّعت تلك العلاقات التي طرقها الشعراء بخاصة في شعر المديح ، فمديح الأخ لأخيه هو تعبيرٌ من نوعٍ خاصٍّ للحبِّ والإجلال والاحترام فيما بينهم ، أو يكون إعجاباً بشخص الأخ وخُلقه وحسن معاملته .

ففي المديح الأسري تظهر العاطفة واضحة جليّة ، ويقترب الشاعر من الصدق الواقعي في مديحه ، وإذا جوّد في شعره توحّد عنده الصدق الواقعي مع الصدق الفني ، وهذا غاية الإبداع ، ومن هنا فإنّنا لم نظفر بامتزاج الصدقين إلا في هذا الضرب من الشعر .

وقد تناثرت القصائد والمقطوعات الشعرية الخاصة في مديح الإخوان في شعر القرن الخامس الهجري ، فغالباً ما يستغل الشعراء مناسبة ما ليمدح فيها أخاه ، معبراً في مديحه عن عمق الرابط الأسري ، ومن أولئك الشعراء الشريف الرضي الذي مدح أخاه بقصيدة طويلة ، قال فيها ﴿البسيط﴾ :

يا بن الحسين وما دعواتي كاذبة ... إذا نسبتك في الشم المناجيد
الطاعنين من الأعداء ما لحقوا ... والخيل تلطم هامات الصياخيد
معوّدون من الأيام مرتبة ... لا يستطيل إليها كلّ صنديد
يأبون أن يلبس الإظلام ربعهم ... ليلاً وما عذّبوا طرفاً بتسهيد
ويغضبون إذا عاطيتهم هممًا ... مرفّهات وهمّاً غير مكدود
هم الضيوف لأرضٍ غير أهلةٍ ... من الأنيس وورد غير مورود
فأنت أبسطهم باعاً إذا بسطوا ... أيديهم لوعيدٍ أو لموعود
الآن جاءت خيول السعد راكضةً ... تجري بيومٍ مضيء الوجه مجدود
بمولدٍ صقل الآباء حليته ... فطوّق المجد أعناق المواليد
مولودة نهب الراؤون بهجتها ... لثماً وعانقتها في ثوب محسود

لقد جاء النصُّ متساوقاً مع خلجات الشاعر تجاه ممدوحه ، وقد عبّر عن هذا تلك الخلجات بواسطة النداء بقوله (يا بن الحسين وما دعواتي كاذبة) ، الذي يظهر من القلب للتعبير عن عرى العلاقة الأسرية بين الشاعر وأخيه ، ومن خلال النصّ يصف الشاعر ممدوحه بالشجاعة الفائقة ، فهو يطعن الأعداء أينما يثقفهم بخيله القوية التي تكسر الحجر الشديد؛ لقوتها ، وأنّه من أسرة تأبى الضيم في الأرض والظلم الذي يلحق الناس.

وقد وصف أهله بأنّهم أولئك الرجال الشجعان الذين ينزلون الأرض غير الآهلة من الإنس ويسكنونها ويجعلونها آمنةً ، من ثم يعود إلى ذكر صفة الكرم التي ما وُصِف شجاعٌ إلا واقترنت به ، وكلّ هذا المديح كان بمناسبة ولادة مولودة وهبها الله سبحانه لأخيه الذي ابتهج بها ، فكانت هذه المناسبة معيناً

صافياً انتهل منها الرضي مدحته لأخيه المرتضى ، فهم من بيت مجد وجاه لأنّهم ينتمون إلى أشرف بيوت العرب وأعزّها ، وهم آل بيت النبي(ﷺ) .

وقد أخرج لنا الشاعر هذا النصّ بلغةٍ بسيطةٍ وواضحةٍ ؛ لأنّ الشعر بوصفه قضية اجتماعية يجب أن يكون بعيداً عمّا هو غير واضحٍ وغامضٍ ، فالنقد القديم كما نعرف يطالب الشاعر بإيصال المعنى إلى المتلقي بأوضح الألفاظ وأدلها عليه ، إذ أن غموض اللفظ يعني غموض المعنى وتعقده ، وكل ما طرحوه من صفات للألفاظ هو في سبيل جعل المعنى مفهوماً لدى الجميع يعرفه الخاص والعام (١٥) ، يقول ابن جني(ت٣٩٢هـ): ((ذلك أنّ العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتداعبها وتراعيها ، ونلاحظ أحكامها بالشعر تارة ، وبالخطب تارة أخرى ، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها ، فإنّ المعاني أقوى عندها وأكرم عليها ، وأفخم قدراً في نفوسها)) (١٦) ؛ لهذا لم تكن البساطة والوضوح ضعفاً في الشعر بل هي مزية صالحة لكي يفهم ، ويوصل الرسالة التي يتوخاها في القول ، مع مراعاة اختيار اللفظ المتساوق مع المعنى والمناسبة التي قيل فيها الشعر فضلاً عن الوزن الشعري المناسب ، الذي يتلاءم مع مشاعر الشاعر وأحاسيسه ، إذ يجري اختياره بصورةٍ تلقائيةٍ .

وقد كان أسلوب الكناية حاضراً بصورةٍ واضحة في النص ، فقد طوّع للألفاظ ؛ لتعبّر بصدقٍ عن صفات ممدوحه وفضائله ، والملاحظ أنّ الشاعر لا يشعرك بأنّ الممدوح أخوه ، وكأنّه يدفع المتلقي إلى الاستفهام عن صاحب هذه الصفات ، وحينما يعرفه يزداد إعجاباً بالشاعر وممدوحه على السواء ، ومن هنا يصبح الفخر بهذا الأخ نتيجة للمدح .

وللشريف الرضي مدحة أخرى مدح فيها أخاه الشريف المرتضى ، قال فيها ﴿البسيط﴾ :

في هذه المدحة يتفنن الشاعر في المديح ويقدّم ما يمكن في وصف الممدوح بانتمائه إلى شجرة طيبة المعالي تعلو على الأشجار كلّها ، وهي شجرة رسول الله (ﷺ) ، والشاعر حريص بأن يضع أخاه في أعلى مرتبة وأرقاها ، وأن يسبغ عليه السمات المعنوية فهو من آل النبي(ﷺ) ؛ وقد ذكر الشاعر النسب ؛ لما له من صدى في نفوس الممدوحين ؛ لأنّ فراد المجتمع يفخرون بالنسب.

يـا ابـن الـنبي مقـالاً لا خفـاء بـه ... وأحسـن القـول فينـا قـول مختصـر
رأيـت كفّـك مـأوى كـلّ مكرمـةٍ ... إذا تواصـت أكـفّ القـوم بالعسـر
لطـاب فرعـك واهتـزت أراكتـه ... في المجـد إن المعـالي أطيـب الشـجر
مـا كـلّ نسـل الفتـى تزكـو مغاربـه ... قـد يفجـع العـود بـالأوراق والثمـر
إنّ الرمـاح وإن طالـت ذوائبهـا ... مـن العـدا تتواصـى عنـك بالقصـر
تسـلّ منـك الليـالي سـيف ملحمـةٍ ... يستنهض الموت بين البيض والسمر
مشـبّع الـرأي إن كـرّت أسـنته ... جـرّ القنـا بـين منـآدٍ ومنـأطر
فاسـلم إذا نكـب المركـوب راكبـه ... واستأسـد الـدهر بالأقـدار

من ثم يضعنا الشاعر أمام لوحة الكرم تلك اللوحة المعطاءة الكبيرة من خلال إطلاق الجزء على الكلّ ؛ ذلك من خلال وصف كفّه بأنّه مأوى لكلّ مكرمةٍ وأعلى من كلّ أكفّ القوم بلا منازع ، كلّ هذه اللوحة التي تفنن الشاعر من خلالها في إظهار تفرّد الممدوح بالنسب والكرم ورجاحة الرأي والشجاعة الفائقة ، أظهرها من خلال توظيفه للمفردات المعادلة لتجربته ، فهي مستمدة من الموضوع الشعري بتعامله مع دافع محسوس خرج بواقع مدحي جديد صلب يدلل على شاعريته (١٨) .

وللشريف المرتضى أماديح في أخيه الرضي ، يقول في مدحةٍ ﴿الطويل﴾ :

أضمّ حشىً قد أنهش السير بردها ... إلى مـن حشـاه مطمـئن مـنعّم

وأدمى بناناً دأبها سلٌّ قائم		إلى من له كفٌّ رطيبٌ ومعصم
فإن أبلت الأيام ناظر بهجتي		فلم تبل مني ما به أتقدّم
...فغرّته من أبيض النصر نورها		وصهوته إلى المآثر سلّم
تضاءل ما تسمو به من ولادةٍ		بمحض ودادٍ لم يشبه تجرّم
أطال لساني في ثنائك أنه		ثناءٌ عليّ ما حييت ينظم
وقدمتُ قولاً من مديحي مصدّقاً		طراز افتخاري منه بالحسن يعلم
وهذا جوابٌ عنه لّما استطعته		فيجري منه الآن ملآن مفعم (١٩)

بدأ الشاعر مدحته بوصف كرم ممدوحه وسخائه ، فكفّ أخيه ندي رطيب، وهي كناية عن الكرم والسخاء الذي عرف به ، فيده معطاءة لا تعرف للشحّ سبيلاً ، كذلك يصفه بالشجاعة فيصرّح بقوله(فغرته من أبيض النصر نورها) ، وأنّه عاقد العزم لبلوغ المآثر .

والشاعر في قصيدته يذكر صراحةً أنّه في موضع المدح لا الفخر ، وذلك في قوله (وقدمت قولاً من مديحي مصدّقاً) ؛ لذا يستبعد الفخر هنا ويندرج هذا الضرب من الشعر من ضمن المديح الأسريّ ، فالمشهور أنّ عائلة الشريفين الرضي والمرتضى هي عائلة ذات علمٍ ودينٍ ووجاهةٍ ونسبٍ شريفٍ يتصل برسول الله (ﷺ).

ومن خلال هذه المدحة نلحظ الواقعية الممزوجة بالفنية في التعبير في اختيار الألفاظ الرشيقة الفخمة لا الألفاظ الحوشية أو الركيكة وبحسب ما يقتضي المعنى ، فالبنية اللغوية للنص الأدبي ونسقه التركيبي وطريقة تنظيم عناصره الأساسية هي المنابع الحقيقية الأصيلة للدلالات الفنية التي تبلور الرؤى العميقة الكامنة في بنية التجربة الشعرية(٢٠).

وله مدحة أخرى في أخيه الرضي ، قال فيها ﴿الطويل﴾ :

وإن نـاكرتني خلّـةٌ مـن خلالـه تعـرّض قلـبي يفتـديها مـن الحقـد
تخـال رجـال مـا رأوا لضـلالةٍ ولـن تستنشـف الشـمس بـالأعين
وكـم مظهـرٍ سـيما الـوداد يرونـه حميـداً ومـا يخفـى بعيـد مـن الحمـد
وحوشيت أن ألفاك سبطاً بظاهري وأن كنـت مطويـاً علـى بـاطن جعـد
...إياباً فلم تشرف على غاية النوى ولم نتأكـلّ النـأي عـن سـنن القصـد
فللـدر نثـر لـيس يـدفع حسـنه ولـيس كمـا ضـمّته ناجيـة العقـد
ومثلـك أهـدى أن يعـاد إلى الهـدى وأرشـد أن ينحـاز عـن جهـة القصـد

لقد وظّف الشاعر صفة (التقوى) في قوله (وتخال رجال ما رأوا لضلالةٍ)، وصفة (كرم النفس والعزة) في قوله (وحوشيت أن ألقاك سبطاً بظاهري) ، وصفة (رجاحة العقل) في قوله (ومثلك أهدى أن يعاد إلى الهدى...) ، في نصه المدحي الآنف الذكر ، وقد جعل هذه الصفات مرتكزاً لمدح أخيه .

وكان هذا المدح يتوارى خلف أبيات العتاب والفخر والحكمة ، فقد لوّح الشاعر فيه صراحةً وضمناً ، ويختم الشاعر القصيدة ببيت مدحي جميل يقول فيه بأنّه أهدى أن يعاد إلى الهدى ، وهي دلالة على رجاحة العقل ورشده ، وهذه صفة السيد المقدّم وصاحب العلم الواسع والمبدع المجيد الذي فيه الكثير من الصفات والمقومات التي تجعل منه أهلاً للمديح ، وكان أسلوبٍ المدح واضحاً ورصيناً ينمُّ عن شاعريةٍ تدلّ ((على التقاط اللحظات النفسية ، وتجريد الشعور ، وتجسيده بشكلٍ حسيٍّ ملموسٍ)) (٢٢).

ومن صور المديح الأسري مديح الأخوال ؛ لما للخؤولة من أثرٍ كبيرٍ في قيام الأسرة وتماسكها ، ويمكن القول أنّ الخؤولة عند العرب توازي العمومة ، وكانت رعاية العرب لها كبيرة جداً كونها تعدّ احتراماً واعتزازاً بالأسرة وقدسيتها وقيمتها المتجلية بالخؤولة عندهم (٢٣) ، لذلك نالت الخؤولة عناية

الشعراء في القرن الخامس الهجري والتي تعد مظهراً من مظاهر المديح الأسري .

فهذا الشريف الرضي يمدح خاله أبا الحسن أحمد بن الحسين الناصر بقصيدةٍ طويلةٍ عددّ فيها الصفات التي يتحلّى بها ويستحق الثناء عليها ، يقول فيها ﴿البسيط﴾ :

لكلِّ مجتهدٍ حظٌّ من الطلب ... فاسبق بعزمك سير الأنجم الشهب

وارق المعالي التي أوفى أبوك بها ... فكم تناولها قومٌ بغير أب

ولا تجز بصروف الدهر في عصبٍ ... من القرائن غير السمر والقُضُب

ندعوك في سنةٍ شابتْ ذوائبُها ... حتى تفرجها مودة القَضُب

ولم تزل خدعات الدهر تطرقها ... حتى تعانق عود النبع والغرب

أتيت تحتلب الأيام أشطرها ... فكلّ حادثةٍ منزوحة الحلب

لولا وقارك في نصلٍ سطوت به ... فاضت مضاربه من خفّة الطرب

وحسن رأيك في الأرماح ينهضها ... إلى الطِّعان ولولا ذاك لم تثب

وما زال بشرك في الأزمان يؤنسها ... حتى أضاءت سروراً أوجه الحقب

يفديك كلّ بخيلٍ مات خاطره ... فإن خطرت عددناه من

يؤكد الشاعر في بداية قصيدته أنّ خاله واحدٌ من أولئك المجتهدين في الطلب ، ويقصد به طلب المعالي ، فهو صاحب عزمٍ يسابق النجوم العالية ، من ثم يقول له ارتق تلك المعالي كما ارتقاها أبوك ، موظفاً في ذلك أسلوب المجاز، الذي له القدرة العالية في تصوير الأمور الذهنية وأبرازها بصورةٍ حسيةٍ.

من ثم يصف ممدوحهبأنّه أمامٌ متميزٌ في صفاته كلّها ، والتي تجعل منه

صاحب وقار مهيمن على ذهن الشاعر الذي مدحه بكلِّ صدقٍ وانتماء ، وإظهار ما يمتلك من صفات جعلت منه صاحب رأي ووقار ، حتى أنّ رأيه في الأرماح جعل منها تثب وهذا استعمال بياني جميل أسنده إلى حسن الرأي ، وهي من الاستعارات التي أسبغت على النص قوةً وجمالاً ما جعله من النصوص الفنية التي أبدع فيها الشاعر .

وقد أخرج الشاعر المديح بصورة تليق بالممدوح الذي يخاطبه بقوله (كن كيف شئت) فإنّ المجد محتمل عنك المفاخر إلى أن يصل إلى بشر الممدوح الذي أضاء هذا البشر أوجه الحقب ، فهو ذلك الكريم الذي يفتديه كلّ بخيلٍ مات خاطره وابتعد عن الكرم التي هي صفة كلّ عالٍ وعظيمٍ في الناس التي تتباهى بالكرماء والشجعان وأصحاب الرأي السديد في كلِّ مكانٍ وزمانٍ .

وقال يمدح خاله أيضاً بقصيدةٍ طويلةٍ ، قال فيها ﴿البسيط﴾ :

تطيش أمواله والبذل يطلبها ... ما وفّر عن أعراضه وقر

مشيّع هذب الأرماح مذ فطنت ... إلى طعان الأعادي والردى غمر

يسري من الكيد جيشاً لا غبار له ... ولا طلائع تهديه ولا نذر

كم بات في لهوات الليل تعركه ... ما بين أكوارها المهرية الصعر

والخيل تقدح من أرساغها شرراً ... أمسى يعثن منه الترب والمدر

ردّ السيوف فمغلولٌ ومنثلمٌ ... على الرماح ومنآد ومنأطر

إذا شاح بنصلٍ في أناملِه ... قامت تعانقه الهامات والقصر

نصل تمطى المنايا في مضاربه ... إذا المعزّز أثنى نصله الخور

عارٍ يصافح أعناق الرجال به ... يوم النزال وما في باعه قصر(٢٥)

النصُّ يفصح عن توجّه الشاعر وعنايته بخاله الممدوح الذي تعدّ صفة

السخاء والتي لها قيمة اجتماعية رفيعة ، أبرز صفاته ، وقد عكسها في صلته بالممدوح ، وهو بذلك يعكس نظرة العرب إلى الرجل ، وهي نظرةٌ خاصةٌ تفرض أن تتوفر فيه ميزات وصفات شخصية ، ولعلّ أبرزتلك الصفات الكرم والشجاعة التي عدّت شرطاً في رجولته وعاملاً من العوامل التي تجعله يقوم بعملٍ مؤثرٍ في مجتمعه ، فصفات الرياسة أقتضتها طبيعة المجتمع ، وحتمتها ظروف بيئية بحتة ، فالممدوح كريم يجير الخائفين(٢٦)، لذا ارتكز المدح في هذه القصيدة على هاتين الصفتين ارتكازاً كبيراً ، إذ بدأ قصيدته بالكرم وأردفها بالشجاعة التي كان لها النصيب الأوفر فيها .

وقد وظّف الشاعر الأساليب البيانية من كالمجاز والاستعارة والكناية ، فضلاً عن الألفاظ الواضحة التي لا تخل بالمعنى بل تزيده قوةً وبهاءً في الفهم والتلقي من دون تعقيدٍ الذي يجعل من الفكر متعباً في فهم مراد الشاعر ، فالكناية لا يكاد يخلو منها بيت في القصيدة ، منها قوله (تطيش أمواله والبذل يطلبها) كناية عن الكرم ، وقوله (والخيل تقدح من أرساغها شرراً) كناية عن القوة والشجاعة ، فضلاً عن الاستعارة التي وظفت توظيفاً رائعاً في قوله (عارٍ يصافح أعناق الرجال به) ، تصويراً لشجاعة الممدوح وتقدمه في ساحات الوغى.

ونجد أنّ الشاعر في هذه المدحة اقتفى إثر الشعراء القدماء ، إذ سيطرت على النصّ الفاظ البطولة والفروسية (السيف ، الرماح ، الخيل) ممزوجة بالعقل المدبر لكلّ ذلك ؛ لأنّ صفات السيد والرئيس عند العربي لا تتعدى ذلك ، وأظن أنّ نظرة الشريف الرضي إلى خاله هي نظرة تقديسٍ إلى عرى العلاقة الأسرية وأصالة العروبة المتجلية في شخصية خاله التي يعود نسبها إلى رسول الله (ﷺ)؛ لذلك كان المدح لائقاً به وبمستوى هذه العلاقة .

وقال الشريف المرتضى يمدح خاله ﴿الخفيف﴾ :

وإلى أحمد الذي ظلّ عود المجد لما استهلّ في إبراق
جذبتني وسائل للعلا فيه غرامي لأسرها في وثاق
لبست منه حليها فاستهامت بالتحلي به عن الأحداق
ذاك موهي عقد الخطاب إذا ما اعتـ ـلج القول في لها المسلاق
رابط الجأش في جليل الرزايا شارد الفكر في المعاني الدِّقاق
لست أرضى بأن أقول هو البد ر ومذ تمّ لم يصب بمحاق
فت بالبرِّ بالمعالي بينها فانظرن هل ترى لهم من لحاق؟
كنت أقضي على الورى بخلاف الـ ـمجد حتى قيدت من إطلاقي
كيف لا أجتني له ثمر المدح وتلك الأعراق من أعراقي
واقف عنده جواد سباقى وإلى هذه المعالي سباقي
لست أنحو لكلِّ شخصٍ بلحظى ولو أنّ القتاد في آماقي (٢٧)

أفصح النصُّ عن قوّة العلاقة الأسرية بين الشاعر وخاله التي يتصل به من خلال النسب العتيد الذي صوّره بقوله (تلك الأعراق من أعراقي) ، وهذا القول هو مفتاح المديح الذي قاله الشاعر في خاله أحمد بن الحسين ، ونلحظ أنّ هذا المديح يحمل في طياته فخر خفي للشاعر ، فهو يشترك مع خاله بالنسب ، لكن الشاعر جعل ذلك في جانب المدح لا الفخر ، فخاله تميز بالمجد العالي الذي أوجب على الشاعر التعلّق به ، وجذبته إليه وسائل قيدته وجعلته يطلق القول الفصيح الذي عبّر عنه بلفظة (المسلاق) .

وقد اعتنى الشاعر بالممدوح الذي وصفه برباطة الجأش وقوّة القلب وهذه الصفة لا يتحلّى بها إلا الشجعان أصحاب الأصول العالية ، الذين سطروا

الأمجاد ، فهم أبطال خلف عن سلفٍ ، وهذا ما يجعل الشاعر يفتخر بخاله الذي وصفه بالبدر وهو بتمامه ، من ثم يتحدث عن شجاعته وذكر جواده (سباقى) ، بعدها يقول الشاعر إنّ إلى هذه الصفات سباقه ؛ وبذلك أعطى للمعنى حركية الإبداع الفني في إظهار صفة السبق بواسطة البلاغة (الجناس)، التي غالباً ما تكون لها القدرة في إعطاء المعنى قوّة وتفرد ؛ ليرفد النصَّ بالعذوبة والإبداع ؛ ليصوّر شخصية الممدوح بما يليق بها من دون مبالغة مفرطة ؛ لأنّ وظيفة البلاغة إعطاء النصّ قوة ورصانة ، فهي تدلُّ على حسن المعاني وتمامها وجمال تصويرها ، وإنّ ذلك يتحقق حين يتناول المبدع المعنى من الجهة ((التي هي أصحّ لتأديته ، ويختار له اللفظ الذي هو أخصّ به ، وأكشف عنه ، وأتمّ له ، وأحرى أن يكسبه نبلاً ، ويظهر فيه مزية)) (٢٨).

ولأبي العلاء المعرّي مدحة في خاله ، يقول فيها ﴿الوافر﴾ :

تُفـــديك النفـــوس ولا تفـــادى ... فـــأدن القـــرب أو أطـــل البعـــادا

أرانـــا يـــا علـــي وإن أقمنـــا ... نشـــاطرك الصـــبابة والســـهادا

ولـــولا أن يظـــن بنـــا غلـــوٌّ ... لزدنـــا في المقـــال مـــن اســـتزادا

وقيـــل: أفـــاد في الأســـفار مـــالاً ... فقلنـــا: هـــل أفـــاد بهـــا فـــؤادا

وهـــل هانـــت عزائمـــه ولانـــت ... فقـــد كانـــت عرائكهـــا شـــدادا

إذا سـارتك شـهب الليـل قالـت: ... أعـــــان الله ابعـــــدنا مـــــرادا

وإن جازتـك هـوج الـريح كانـت ... أكـــــلّ ركائبـــــاً وأقـــــلّ زادا

إذا جلّـــى ليـــالي الشـــهر ســـير ... عليـــك أخـــذت أســـبغها حـــدادا

تخيّـــر ســـودها وتقـــول: أحلـــى ... عيـــون الخلـــق أكثرهـــا ســـوادا

تضـــيفك الخوامـــع في المـــوامي ... فتقـــريهنّ مثنـــى أو فـــرادى(٢٩)

هذه القصيدة قالها في سفر خاله إلى المغرب العربي فكان وقع الفراق واضحاً في نفس الشاعر مصدرها (تفديك النفوس) وهو غاية التضحية التي يتمناها الشاعر في تقديم نفسه فدىً لخاله ، ويستعمل (لولا) في القول لتفادي الغلو في القول الذي يعدّه النقّاد خروجاً عن المألوف مما يعطي المعنى والقول ضعفاً ، ولكن الشاعر استدرك الغلو فأجتنبه كي لا يقال عليه أنّه بالغ في مديح خاله ، ويصوّر لنا في هذه المدحة مدى قوّة الممدوح بأنّه أبيٌّ شديد النفس ، ردّاً على الذين يقولون إنّه سافر لزيادة في ماله ، ويعمد الشاعر إلى المجاز في القول ليعطي المعنى تأثيراً وهو (إذا سارتك شهب الليل) فإنّها تقول أعان الله من يساره فهو بعيد المراد ،وكذلك (هوج الريح) إذا جرت معك ، فإنّها قاصرة وكذلك الليل فإنّك مكشفه عند تخيرك أكثر الليالي سواداً .

ثم يقول إنّ الضِّباع في الأراضي المقفرة يقربها ممدوحه ؛ لكرمه، فالمشهور أن الضباع تأكل ما يتبقى مما تفترسه السباع القوية كالأسود التي شبّه خاله بها من دون أن يصرّح بذلك ، وربّما أراد الشاعر بهذا التعبير أن يوصل معنى لم يذكره صراحةً، وقد استعمل الشاعر الأساليب البيانية في هذه المدحة بطريقةٍ جميلةٍ وهي سهولة الألفاظ ووضوح معانيها ، إذ لا تحتاج إلى كدّ العقل في فهمها وهذا قريبٌ من واقعية الحدث ، وهذه البساطة الممزوجة بالبيان تكسب الكلام رونقاً وطلاوةً وتعطيه رشاقة ويذيقه حلاوة (٣٠).

المبحث الثاني

مديح الأصدقاء

تحظى آصرة الصداقة في المجتمعات بمستوى يوازي آصرة الانتماء الأسري ، بل تفوقها في بعض الأحيان ، ويعدّ الصديق بمثابة الأخ الذي لم تلده الأم والنصير الذي ينصرك عندما يخذلك أخوك لوالديك أحياناً ، فهو المؤيد والمؤازر .

فالصداقة علاقة متبادلة بين جانبين يكمل أحدهما الآخر ؛ لذلك سارت العلاقات بين أفراد المجتمع الواحد تسمو وتقدّس فحافظ عليها الناس وصانوها كثيراً ، وكانت تعد من العلاقات المحمودة في المجتمع والتي من خلالها يظهر الإنسان وفاءه لصديقه وتحقيق ذاته ، وجرت العادة في المجتمع بخاصة الشعراء على أنّ يظهروا معاني الصداقة في الشعر ، وهذا ما وجدناه عند بعض شعراء القرن الخامس الهجري ، إذ تناول الشعراء معاني الصداقة وكتبوا في أصدقائهم وأبرز صفاتهم وخصالهم التي يتصفون بها ، ويصل مستوى الصداقة بين الأفراد إلى حدّ التضحية من أجل الصديق ، وهذه أعلى غاية الجود عند العربي من أجل صديقه ، وتبقى آصرة الصداقة ظاهرة شعرية في هذا القرن ، ومن خلال استقرائنا لشعر القرن الخامس الهجري وجدنا أنّ الشعراء يفيضون في شعرهم عن الصداقة ويكتبون المديح في الصديق ، تعبيراً عن عاطفة الحبّ والمودة التي تربطهم بأصدقائهم .

مدح الشريف الرضي أحد أصدقائه بعد قدومه من السفر قائلاً ﴿المتقارب﴾:

وفــى ذا الســرور بتلــك الكــرب   وهـــذا المقـــام بـــذاك التعـــب
قـــدمت فـــأطرق صـــرف الزمـــان   عنـــاءً وأغضـــت عيـــون النـــوب
ومثلـــك مـــن قذفتـــه الخطـــو   ب في صـــدر كـــلّ خمـــيس لجـــب
قريـــب المـــراد بعيـــد المـــرام   عظـــيم العـــلاء جليـــل الحســـب
ومـــن قلقـــل الـــبين أطنابـــه   ونـــال أقاصـــي المنـــى بالطلـــب
غـــدت تشـــتكيك كـــؤوس المـــدام   ويـــثني عليـــك القنـــا والقضـــب
وكنّـــا نصـــانع فيـــك الهمـــوم   فصـــرنا نصـــانع فيـــك الطـــرب
إذا مـــا الفتـــى وصـــل الزائـــرين   أثنـــوا عليـــه نـــأى أو قـــرب

وكيـــف يهينيّـــك لفـــظ امــرئ يهـــني بقربـــك أعلـــى الرتـــب
وكنّــا بـــذكرك نشـــفي الغليـــل ومـــا بيننـــا أمـــد منشـــعب
رأينـــا بوجهـــك نـــور اليقيـــ ـــن حتـى خلعنـا ظـلام الريـب
ومازلـــت تمســـح خـــدّ الصـــباح وترحم قلب الظلام الأشب(٣١)

في هذه المقدمة يهنئ الشاعر ممدوحه بسلامة القدوم ، وأنه مسرور لهذه العودة الميمونة ، ثم يبين الشاعر عن آصرة الصداقة والمودة بينهما ، فهو قريب المراد وبعيد المرام عظيم العلاء وجليل الحسب ، وهذه هي صفات صديقه الممدوح التي يراها الشاعر بأنّها مؤهلات تجعل منه صديقاً يستحق الصداقة والمديح .

ويلحظ أنّ في كلٍّ بيتمديحٍ لذلك الصديق بصفةٍ تميزه من الآخرين ، فهو الذي يثني عليه القريب والبعيد وكذلك تثني عليه القنا والقضب ، وهذه دلالةٌ عن شجاعة صديقه التي عبّر فيها بهذه الألفاظ (القنا ، القضب)، ويشفى الغليل بذكره وبوجهه يرى نور اليقين ، وهذه كلّها تعبيرات تبين مدى عمق علاقتهما التي حتمت على الشاعر القول الصريح والواضح في ممدوحه ، فالشاعر قليل التصنع والمبالغة في ممدوحه بل مدحه على ما فيه من سجايا ((فعمد الشاعر إلى بناء مشهد كامل من الصور المترابطة التي لا تنفصل كلّ صورةٍ منها بذاتها)) (٣٢)، فهذه الصورة الشعرية جاءت ممتدة إلى أكثر من موضعٍ خياليٍّ متساوقٍ مع العاطفة القوية التي تربط الشاعر بممدوحه وهو جانبٌ ذو قيمة يشير إلى حيوية الصورة ونجاحها(٣٣).

وقال الشريف المرتضى يمدح صديقاً عربياً بقصيدةٍ طويلةٍ ، قد جعل محورها الكرم والشجاعة الفائقة التي يمتلكها قوم الممدوح ، يقول فيها ﴿الطويل﴾ :

فإنّك من قومٍ إذا حملوا القنا جرت علقاً من الكماة العوامل
يخوضون أظلام الوغى وأكفّهم تضمُّ على ما أخلصته الصّياقل
وتعرف من آبائهم وجدودهم سمات على أخلاقهم وشمائل
إلى الحزم لم يثنوا على الرأي ولا شغلتهم عن عظيمٍ شواغل
ولا رفلت فيهم وقد سلب الندى نفائسهم تلك الهموم الرّوافل
ولا خفقت في يوم روع قلوبهم ولا ارتعدت خوف الحمام الخصائل
كأنّي بهم مثل الذئاب مغيرةً وقد ضحيت عنهنّ تلك القساطل
ومن فوقهنّ القوم ما شهدوا الظُّبا لدى الروع إلا والنساء ثواكل
ولست ترى إلا رجالاً كأنّهم مناصل في الإيمان منها مناصل
تبلّغ أوطار لنا وما آرب وتدرك ثارات لنا وطوائل (٣٤)

إنّ البحث التفصيلي لهذه القصيدة يكشف بأنّ الإقدام والشجاعة هي من سوابق الشعر العربي ؛ لأنّ الشجاعة هي من القيم التي تميّز بها العرب وافتخروا بها وقد جعلها قدامة بن جعفرمن دواعي قول الشعر التي جمعها في ((العقل والعدل والعفّة والشجاعة)) (٣٥) ؛ لذلك نرى أنّ الشاعر عندما شرع بمدح صديقه وجد أن يكون منطلق المديح من قوم الممدوح الذي وصفهم بالشجاعة والحزم والكرم ، إذ شغل حديث الشجاعة خمسة أبيات من القصيدة فهم يحملون رماحاً علق بها دم الشجعان ، وسيوفاً أخلصتها الصياقل ، ولهم قلوب لا تخفق يوم الروع وفي ساحة الوغى ، ويغيرون كالذئاب على أعدائهم ؛ لقوتهم في الحرب ، ويثكلون النساء ، وهذه صور عظيمة للشجاعة والقوّة والبأس يفخر بها العربي إذ كان قومه بهذه الصور من الشجاعة .

وقد عرّج الشاعر على ذكر الآباء والأجداد ووصفهم بأنّهم ذوو خلقٍ رفيعٍ وشمائل حسنةٍ وهم أيضاً ذوو رأي سديد ، يذهبون إلى الأمور العظيمة بحزمٍ لا يثنيهم شاغلٌ عن ذلك ، فضلاً عن أنّهم كرماء مصوراً ذلك الكرم بالاستعارة بقوله (سلب الندى نفائسهم) ، فهم لكرمهم لا يبقى لديهم شيئاً نفيساً إلا وبذلوه وكأن الكرم هو الذي يسلبهم ذلك .

وهذا يدلّ على المديح الأصيل من الشاعر إلى صديقه العربي ، إذ أفرد له الصفات التي يتميز بها العربي في كلّ زمانٍ ، وبذلك يعرض لنا لوحة متكاملة عن العربي استعمل فيها ضروب البيان العربي كالتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية بأسلوبٍ متسقٍ يعطي للقصيدة قوتها بذاتها وانسجام وحداتها الموضوعية .

وقال مهيار الديلمي يمدح صديقاً له بقصيدة ، يقول فيها ﴿الكامل﴾ :

لبيك عدة ما أتاني غافلاً ... عنّك الرواة بطيّبٍ الأنباء
وغلوت في وصفي فقلت سجية ... مازلت أعرفها من الكرماء
عمي الورى عن وجهها فرأيته ... ـ وهو البعيد ـ بناظري زرقاء
قد كنت أظهرها وتخفى بينهم ... ما للغنى أثر على البخلاء
لا ارتعت إذا أعطيت منك مودة ... ماذا أسرّ الناس من بغضائي
وصداقتي للفاضلين شهادة ... بالنقص ثابتة على أعدائي
ومودة الأبناء أحسن ما ترى ... موروثة عن نسبة الآباء (٣٦)

هذه الأمدوحة هي جواب شكر من الشاعر لصديقه لما له من أثرٍ كبيرٍ في نفسه تجاه ممدوحه ، ومن خلال النص يفصح الشاعر عن مدى الود الذي بينهما ، فهو يقول له (لبيك) وهي دلالة على قوة الصداقة وشكر على ما أبداه له من رعاية وعناية ، فقد نقل الرواة له من طيب الأنباء التي وردت إليه

من هذا الصديق ، فقال له إنّها سجية الكرماء التي بنى عليها الشاعر هذا النصّ المدحيّ الذي أخرجه من باب الأخوانيات .

فصديقه كريم النفس يحفظه في غيابه ، إذ نقل عنه الرواة احترامه لهذه الصداقة وهي سمة الوفاء التي كان يعتزُّ بها كلّ عربيٍّ ، ويبين الشاعر أنّ صديقه قد غلا في وصفه فقال إنّها سجية يعرفها فيه منذ زمنٍ بعيدٍ قد لا يعرفها الناس لكنه يعرفها ، مقرّباً تلك المعرفة بتشبيهها بـ(ناظري زرقاء) ، أي أنّه متفرسٌ بأخلاقه كما تفرّست زرقاء اليمامة بالنظر من مسافة بعيدة ـ كما هو مشهور ـ ، وأنّي كنت أظهر صفاتك الكريمة ؛ لمعرفتي بها وصدق مودتي ، ولكن غيري يخفيها كالغنى الذي لا أثر له على البخلاء ، وهذه تشبيه بليغ لذم أولئك القوم الذين لا يعرفون سجايا صديقه الحميم ولا يرى أثر لفضل صديقه عليهم .

ويظهر الاتجاه الاجتماعي في هذه المدحة من خلال حديث الشاعر عن مكانة هذا الصديق في المجتمع ، ويعلن لصديقه أنّ هذه الصداقة يستحقها الفاضلون فقط ، وهي تعد شهادة له بالرفعة والسؤود ، وهي شهادة ثابتة بنقص أعدائي وأعدائك ، من ثم يصرّح بأن نسبه ونسب صديقه واحدٌ ، إذ امتزجا كامتزاج الماء بالصهباء ، وأنّ المودة موروثة بينهما ؛ لأنّها جاءت من الآباء إلى الأبناء .

ونرى من خلال هذا المديح أنّ الشاعر قد انصهر نفسياً مع صديقه فكان نمو الانفعالات وتصاعدها وصل إلى ذروة التفاعل في نهاية القصيدة ، وهذا دليلٌ على تدفق العواطف ، وغاية الشاعر من ذلك التنفيس عن مكنونات خاضعة لهاجس الشاعر تجاه ممدوحه لأنّ ((الصورة الكامنة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر ، حيث يفكر في أمر من الأمور تنمُّ عن تحقيق شعوره وإحساسه ، وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي)) (٣٧) ، الذي تتولد

منه المدحة ؛ لأنّ علاقة الصداقة غالباً ما تكون إقناعاً ذاتياً واتصالاً روحياً بين الصديقين .

ويمدح المرتضى أحد أصدقائه من الرؤساء ، وهو أبو سعد محمد بن خلف النيرماني ، إذ يقول ﴿الكامل﴾ :

مازلت أفحص في الورى عن مثله ... حتى ظفرت بمن أقول كفاني
طمحت إليه عين كلّ رئاسةٍ ... لولاه ما نظرت إلى إنسان
لو شاء ما فاتته أبعد رتبة ... يسعى إليها الخلق بالأجفان
لكنه نظر المماليك دونه ... فزهى على السلطان من سلطان
سبق الكرام السالفين إلى العلا ... والسبق للإحسان لا الأزمان
يا من علا بي ظهر وردٍ سابقٍ ... لمّا رأى ذمي إليه حصاني
إباك أن تفشي سريرة وذّنا ... فيصدني عن قربك الملوان
ويمد صرف الدهر نحوي طرفه ... وهو الذي لولاك ليس يراني
هذا الذي ذكراه آنس ناظري ... وهواه أوحشني من الأشجان
أهدي إليه من كلامي أيّماً ... لكن لها من مدحه بعلان
فتودّ كلّ جوارحي في مدحه ... أن كنّ من شوقٍ إليه لساني (٣٨)

الشاعر في هذه المدحة أمام ممدوح مختلف عن غيره فهو رئيس وشاعر وكاتب في ديوان بني بويه ؛ لذلك وقف الشاعر يتأمل في اختيار الألفاظ المهذبة التي تليق بصديقه صاحب المقامات العالية التي لا يملكها أي إنسانٍ آخر مصداقاً لقول الشاعر (مازلت أفحص في الورى) أي يبحث ويفتش في الناس فلا يجد مثله ، فجاءت هذه المدحة متسقة قولاً وفعلاً مع صديقه ، فالرئاسة هي تطمح إليه ولولاه ما نظرت إلى إنسانٍ ، أي تبقى الرئاسة من دونه لا تعرف إنساناً ؛ وقد وظّف الأداة (لولا) التي هي أداة امتناع لوجود

وقد أسبغت على المعنى دلالة التشخيص بالممدوح .

وقد نظر الشاعر إلى الممالك فوجدها دونه وفخر على السلطان وسبق الكرام السابقين إلا العلا من خلال إحسانه ، وهو فارسٌ عندما يمتطي صهوة جواده الورد وهذا النوع من الخيول مقدم ومفضل عند العرب، ويظهر الشاعر مدى حبّه لصديقه الذي تتوفر فيه كلّ شروط الرياسة والقيادة وكذلك الصداقة ، فالشاعر واجب عليه أن يهديه المدح الخاص ، فتود كل جوارحه أن تكون متهيأة لمدحه ، ونرى أنّ أسلوب الشاعر جاء بلغةٍ جزلةٍ واضحةٍ فيها بعض المبالغة التي لا تسيء للمعنى ؛ لأنّ المادح والممدوح هم من الطبقات المرموقة في المجتمع ولهم مقامهم المحفوظ .

ونلحظ أنّ الشاعر وفق في رسم صورة المدح لصديقه ؛ لأنّ ((الشاعر الأصيل هو الذي يستطيع بحرارة الانفعال أن يربط بين الأجزاء والموضوعات...بطريقة أشبه بالصهر ويخلع عليها من روحه حيوية وحياة ويفضي عليها طابعاً مثالياً خاصّاً)) (٣٩) .

نجد أنّ الشاعر أعطى هذه المدحة مزية خاصة تدلل على مدى آصرة الصداقة بينه وبين الممدوح ؛ لأنّ حسن دلالة الكلام هو أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذي هو أخصّ به ، وأكشف عنه وأتمّ له ويظهر فيه مزية (٤٠) ؛ لذلك كان الشاعر موفقاً في مديح صديقه بالطريقة التي تناسب هذا الممدوح الذي أعجب فيه الشاعر لرياسته وعلمه ، فكان المديح مطابقاً لّما اختاره من القول الشعري فيه .

ومدح صرّدر أبا الخير سعيد بن منصور بن موصلايا يستهدي منه أقلاماً ومداداً عند توجهه لبعض الأسفار ، يقول في قصيدته ﴿الوافر﴾ :

أبـا الخـير المفيـد لكـلِّ خـيرٍ   وكاسـي نبلـه ريـش الصـواب
ومـن ألقـى إليـه النـاس طُـرّاً   مقاليـد الكتابـة في الحسـاب

ومـــن إن شـــاء إنشـــاءً بليغـــاً فلـــيس يعـــوزه فصـــل الخطـــاب
فضـائل ينسـب الإحسـان فيهـا كمـا نسـب القطـار إلى السـحاب
أرانـــا كـــلَّ معجبـــةٍ إلى أن أصـــبنا عنـــده لـــون الشـــباب
مـــــداداً إن تضـــــمنه محـــــلٌّ ظننـــت مقـــرّه وكـــر الغـــراب
فمـا أدري: أ مـن كحـل مـاعٍ تجسّـم أم دجـى ليـل مـذاب؟!
تقـــول اللمـــة الشـــمطاء لّمـــا رأتـــه: ليـت هـذا مـن خضـابي!
وقـد أزف الرحيـل فـلا مقـام سـوى شـدِّ الرحـال علـى الركـاب
إلى ملـكٍ توســـــــط بـين بَـرٍّ وبحـرٍ طـافحٍ سـامي العبـــاب
فلســـت بواحـــدٍ فيـــه أنيســـاً ســـوى الحيتـــان تقـــرن بالضـــباب
فزودنـــي مـــن الأنقـــاس قـــدراً يقـــــوّتني إلى حـــــين المـــــآب
فـــإن أســـعفت بـــالأقلام منّـــا فما يغنى الطعام عن الشراب (٤١)

في هذه البنية الحوارية المدحية كشف الشاعر عمّا يدور في نفسه تجاه الممدوح ، إذ ناداه بـ(أبي الخير) تساوقاً مع اسمه المشهور بهذه الكنية ، ويسبغ عليه بعض الصفات بأنّه مفيد لكلِّ خيرٍ ، إذ جعل الخير محصوراً عند صديقه الذي يتجسد فيه الخير كلّه .

من ثم ينتقل الشاعر إلى الاستعارة ليضع المديح في أعلى صوره من خلال قوله (كاسي نبله ريش الصواب) ، أي أنّ الممدوح كريمٌ وصاحب فضل ونعمة وعقل وحكمة ، وكذلك هو محط أنظار الناس الذين ألقوا إليه مقاليد الكتابة ، وهي الفن الذي يتميز فيه صديقه فضلاً عن أنّه صاحب خطابة وإنشاء بليغ .

كما وصف فضائله وإحسانه وقد شبهها بالغيث ، وكانت العرب إذا أرادت أن تمدح كريماً قرنته بالسحاب التي تعطي من غير تقتير أو تقدير ، إنّما تعمُّ الجميع بالخير ومن دون تمييز ، من ثم ينتقل الشاعر إلى نهاية قصيدته في وصف المداد والأقلام التي يريدها ، وقد عرض لنا الشاعر من خلال ذلك لوحة فنية ، ويظهر وكأنّه مغرمٌ بتلك الأشياء فيعمد إلى تصويرها .

وقد وظّف الشاعر أساليب البيان العربي من دون مبالغة أو غرابة في الكلام ، وعدم التكلف فيإتباع القدماء في البناء الفني للقصيدة في المقدمة والظعن وغيرها ، بل ولجإلى المديح مباشرةً ؛ ولعل ومرد ذلك الصداقة الحميمة بين الشاعر وممدوحه ، التي جعلت من المديح يقع مباشرة من دون اللجوء إلى ما فعله القدماء في المديح الرسمي ((وهذا ما يحدّد قيمة العمل الفني ليس مضمونه فحسب ، بل قدرة الفنان على أن يصهر في ذاته معطيات الوجود وحقائقه ، ويمزجها بعواطفه وإحاسيسه بما يحيلها إلى مادة جديدة تختلف كلّ الاختلاف عن حقيقتها الأولى هذه المادة هي العمل الفني الذي هو في حقيقته هذه الألفاظ الموحية والصور المعبِّرة التي تخلقها موهبة الأديب)) (٤٢)، وهذا سرُّ الإبداع في النصوص الشعرية الخالدة .

وهذا أبو العلاء المعرّي يمدح صديقه الشاعر الذي يعرف بأبي الخطاب وهو مفرط القصر بقصيدةٍ جميلة ، يقول فيها ﴿الكامل﴾ :

وأرى أبا الخطاب نال من الحُجى ... حظّاً زواه الدهر عن خطابه
لا يطلبنّ كلامه متشبّه ... فالدرُّ ممتنع على طلابه
أثنى وخاف من ارتحال ثنائه ... عني فقيد لفظه بكتابه
كلمٌ كنظم العقد يحسن تحته ... معناه حسن الماء تحت حبابه
فتشوفت شوقاً إلى نغماته ... أفهامنا ورنت إلى آدابه

والنخـل مـا عكفـت عليـه طيـوره إلا لّمـــا علمتـــه مـــن إرطابـــه
ردّت لطافتـــه وحـــدّة ذهنـــه وحـــش اللغـــات أوانســـاً بخطابـــه
والنحـل يجـني المـرّ مـن نَـوْرالربى فيصير شهداً في طريق رضابه (٤٣)

الواقعية والإنصاف تطغى على هذا النص إذ أنّ المعرّي أعاد لصديقه حقّه المغبون الذي لم يحصل عليه على الرغم من أنّه صاحب عقل وندى لكنه لم يحصل على أمنيته التي تمناها بأن يكون مشهوراً في شعره لكن عاهة القصر هي التي منعت شهرته ، فالمعرّي يشفق على صديقه من الوضع الذي يعيشه ، وقد وصف شعره بأنّه كالدر الممتنع على طُلّابه وهذا مديح عالٍ لشعر صاحبه ، ويصف الكلام الذي يكتبه بأنّه كنظم العِقد الجميل ، ويحسن نحته ومعناه وبلاغته ونظمه ، إذ يشبهه بالماء الزلال ، وأنّه متشوقٌ لسماع نظم صديقه الشاعر الذي يقف أمام شعره بانبهار.

والمعرّي لم يكتف بهذه التشبيهات بل استمر في وصفه ، إذ شبهه بالنخل الذي تعكف عليه الطيور بسبب وجود الأرطاب اللذيذة التي تحملها ، وكذلك لطافة هذا الشعر وحدّة ذهنه فهي تؤنس السامعين ، وكذلك يشبهه بالنحل الذي يجني المرَّ من الأزهار ليصنع منه شهداً يشفي العلل ، ومن خلال التشبيه تتزايد المبالغة في الوصف داخل الصورة المدحية للشاعر الذي رفع اسمه وأناله حظّاً رابحاً بين الشعراء الآخرين.

لقد جاد الشاعر في استعمال معجمه اللغوي إلى بسط مدحة راقية بحقِّ صديقه وهذا ما يدفعنا للقول بأنّ صانع النصّ ينطلق من لغة موجودة فيبعث فيها لغة وليدة هي الأثر الفني (٤٤) ، أيّ أنّه يخلق ولكن ليس من عدم ، فالألفاظ وحدها لا تصنع قصيدةً وإن كانت هي البنية الصغرى التي ينهض على قدراتها التشكيل الشعري إلا أنّ من الضروري أن تكون مفردات هذه اللغة قد تخففت من دلالاتها القديمة لتصـــبح قادرة على حمـــــل إيماءات

وإيحاءات لم تعرفها من قبل(٤٥) .

وقال الباخرزي يمدح أبا جعفر المختار ﴿المنسرح﴾ :

شعرك يا ابن المختار مختار   يكاد حبّ القلوب يمتار
فراستي فيك أن تسود وإن   ذيّل دون الغيوب إسفار (٤٦)

مدح الباخرزي صديقه المختار بما يمتاز به من مهارة في كتابة الشعر ، وأنّ شعره كما يصرّح الشاعر مختار ، أي صاحب صنعة وحرفة هي الشعر ، وكذلك حرفة العمل في ديوان الإنشاء عند السلاجقة ؛ لذلك كان يتوقع له السيادة والتدرج في المناصب العليا ، وهذا ما يتمناه الشاعر لصديقه المختار وقد استعمل الشاعر اللغة البسيطة وعدم التكلف في القول بل كان الحبّ يسيطر على الشاعر تجاه ممدوحه ؛ لذلك كان القول فيه بسيطاً وتلقائياً خالياً من التعقيد وتوظيف المعجم الشعري المعقد ، فجاءت المدحة متناسقة لما يتميز به الممدوح ، إنّه شاعر وكذلك كاتب في الديوان السلجوقي .

ونجد أنّ مثل هذه الأماديح المختصرة والواضحة هي دليل على قوّة الصداقة بين الشاعر وصاحبه ؛ لذلك يقول الأبيات البسيطة التي تعالج أحد الصفات التي يتميز بها الممدوح ، لهذا خرّج الشاعر لنفسه طريقاً إلى الصدق وعدم المبالغة في القول تجاه صديقه الممدوح (٤٧) .

وهذا النوع من المديح يعدّ وجهاً جديداً له ، إذ صار اتجاهاً واضحاً في هذا القرن ، إذ يمدح الشعراء ممدوحيهم بالمهنة أو الصنعة وغيرها من الأعمال التي يتقنوها .

وللصوري في مديح الشاعر ابن وكيع قصيدةٌ يمدحه فيها ؛ لبراعته في قول الشعر وحسن توظيفه الأساليب البلاغية ، يقول فيها ﴿الخفيف﴾ :

ثم لمّا وجدت ذلك قر   بك مني بعدت يا ابن وكيع

جئت يا صاحب البديع من القو ل بفعلٍ من الصدود بديع
وتمنّعت إذ خطبت إليك الـ ـودّ فارفق بالخاطب الممنوع
بيننا نسبة ولكنّك النّا زل منها في كلّ بيتٍ رفيع
ولي القصد أنت تعلم ما يو جبه لي ما أنت بالمخدوع
ولك الموضع الذي يقتضه كلّما عزّ موضع من خضوعي
غير أنّي أجبّ خلقك مطـ ـبوعاً رقيقاً كشعرك المطبوع
لأرى فيك من لقائك بالو دّ كما في القصد والمقطوع
فلئن كنت في خريفٍ فإنّي من معاني نظامه في ربيع (٤٨)

يمدح الصوري صديقه الشاعر ابن وكيع التنيسي بقصيدةٍ محورها الشعر المطبوع الذي تميز به الممدوح ، بعد مقدمةٍ غزليةٍ يمدح فيها صاحبه بأنّه مبدع في فن البديع البلاغي الذي تميّز به شعره ، فهو يخاطبه بالودِّ والمحبة وعمق الرابطة الحميمية التي تربطهما ، وكذلك بالنسب الذي يقتربان من بعضهما فيه ، إذ تميز شعر الصوري بهذه المدحة بسهولة الألفاظ وتوظيفه الأسلوب البديعي .

إذ وظف أسلوب الجناس في قوله (البديع ، بديع) وقوله (تمنعت ، ممنوع) وقوله (خطبت ، الخاطب) (مطبوعاً ، مطبوع) ، مما أثرى النص بموسيقى داخلية جاءت متساوقةً مع صنعة هذا الصديق ومهارته في البديع ، والمعروف أنّ استعمال الفن البديعي في بناء الصورة الشعرية يؤدي دلالات تهدف إلى ((تقوية المعنى العام والصورة والبنية التي عليها القصيدة أقوى من القصد إلى تقوية معنى خاص تفصيلي يرتبط ببيت واحد أو فكرة واحدة))(٤٩) ؛ لترصد لنا هذه الصورة البديعية دلالات الوئام والصداقة الحميمة بين الشاعر والممدوح .

وقد عبّر الشاعر عن هذا الحبِّ والودِّ بعيداً عن المبالغة المفرطة بل كان واقعياً في تصويره ؛ لأنّ ممدوحه شاعرٌ يستحق القول والمديح الذي يرفع من مرتبته بين الأصدقاء ، وهذا ما يصبو إليه الشاعر في مدحته التي أبان فيها إمارات الودّ والاحترام ووصفه بالخلق الرفيع المطبوع كشعره ، وهذه الصورة تحمل جمالية التعبير الفني الذي يسبغ على القول جمالاً ورونقاً ، الأمر الذي يجعل المتلقي يستأنس له ويتقبله لحسن إبداعه ، فلا حديث عن شجاعة مثلاً أو غيرها ، إنما وضع الشاعر صفات تتناسب مع شخصية الممدوح ، فكانَ مديحه واقعياً من حيث الأصل ، وهو صادقٌ فنياً من حيث الإبداع .

وقال الثعالبي مادحاً أحد أصدقائه بأبياتٍ قصيرةٍ أوجز فيها معانٍ كثيرة ، إذ يقول ﴿الكامل﴾:

يـــامن تشـــابهت المحاســـن والعـــلا ... فيـــه وأصـــبحت القلـــوب برسمـــه

فـــالخلق مـــن كخلقـــه والخَلـــق منـــ ... ـــه كلفظـــه والشـــعر منـــه كاسمـــه

وغـــذاء جســـمي مـــن سمـــاح يمينـــه ... وغـــذاء روحـــي مـــن بـــدائع نظمـــه

لازلـــت بـــين ســـعادةٍ وزيـــادةٍ ... وســـلمت مـــن ســـيف الزمـــان

عدّد الشاعر في هذه المدحة المختصرة مجموعةً من الصور ، التي بدت و((كأنّها مجموعة من المرايا موضوعة في زوايا مختلفة تعكس الموضوع أو الفكرة التي تتصوّر للعيان))(٥١) ، فصور هذه المقطوعة قائمة على الانسجام الداخلي في رصد موضوعاتها وهي (الخُلق ، الخَلق ، المحاسن ، المعالي ، الشعر) وغيرها.

بدأ الشاعر مقطوعته المدحية بذكر المحاسن والمعالي التي غالباً ما يوصف بها الممدوحين ، من ثم يحاول الشاعر الإحاطة بصفات الممدوح على الرغم من قصر كلامه ، إذ لم يجهد نفسه في اختيار المفردات الرنانة ، ولم يتكلف الكلام الكثير في الوصف وإنّما أوجز بذلك الوصف على العكس مما هو

مشهور في بعض اتجاهات المديح الأخر ، التي تحتم على الشعراء الانتقاء في المعاني والمفردات ؛ والسبب في إيجاز الشاعر أنّه رجلٌ عالمٌ ولا يريد أن يسلك مسالك التكلف والتصنّع ، بل وصف صديقه بأفضل ما فيه ، وقد وفق بذلك على الرغم من إيجازه ، إذ وصف بحسن خَلْقه وخُلُقه ، كما أنّ ممدوحه مبدعٌ في شعره .

ويلحظ أنّ الشاعر قد أخذ من ممدوحه زادين لنفسه ، زاداً لجسمه بما يمنحه من مالٍ لهذا الممدوح ، وزاداً لروحه بما ينظمه ممدوحه من بدائع شعره، وبذلك فهو يكرم مادياً ومعنوياً ، وهذه قيمة عالية من قيم الكرم والعطاء

والشاعر في بيته الأخير يدعو للممدوح ، وكأنه لا يملك من شكره على ما سمح به عليه إلا الدعاء له بالسعادة والزيادة ، والسلامة من صروف الزمان ، وقد عبّر عن هذا المعنى بالاستعارة التي تصوّر المعاني الذهنية بصورةٍ حسيةٍ ؛ لتأكيد المعنى وتقويته .

وقال الباخرزي في صديقه أبي القاسم بكر بن المستعين ﴿الطويل﴾ :

شـرفت ببكـر ثـم أنّـي بجاهـه   أُنـوه ، لا ، لا تنكـروا شـرف البكـري
إذا صـنعت مـدحاً فيـه حمحـم   جـوادي إعجابـاً بـه ورغـا بكـري
أظـنّ مـداداً سـائلاً مـن يراعـه   دم العـذرة المسفوح مـن لفظـة البكـر

تظهر في هذا المقطوعة صورة الصداقة الحقيقية التي تتجلى في تشرف الشاعر بصديقه البكري الذي صرّح باسمه مرتين ، فهو صاحب الشرف العظيم ولزاماً أن لا ينكر هذا الشرف ؛ لأنّه حقيقيٌّ يقول فيه مدحاً حتى جوادي يعجب به فيصهل ويحمحم إعجاباً بمديحي له ، وكذلك بكري ، ويمدحه في حال كتابته فهو مبدعٌ ، أي أن ألفاظه بكر لم يسبق لها كاتب ، وقد شبّه مداد قلمه الذي ينساب بدم العذرة المسفوح ؛ لتفرده وتميزه من أقرانه من الكتّاب الآخرين ، وإنّ بساطة اللغة وحسن التصوير وواقعية القول تجعل من

الممدوح مقدماً في هذه الصورة عند الشاعر الذي أفصح عمّا في نفسه تجاه ممدوحه ، ولعلّ اختيار الشاعر لهذه الكلمات التي توضعت في مكانها المناسب تظهر فاعلية العلائقية التي تربط بنى النصّ مع بعضها البعض ، فالعمل الأدبي وحدة تتآزر جميع عناصرها لأداء غرض واحد (٥٣) ، وهو المديح .

وقال الشريف العقيلي (ت٤٨٠هـ) يمدح صديقاً ﴿الكامل﴾ :

لازال أحمد في الورى محموداً ... فلقد كساني في جودة الموجودا
خلّ إذا استعرضت جوهر خطّه ... أبصرت منه قلائداً وعقودا
لاماته لو ملن كن سوالفاً ... ألفاته لو مسن كن قدودا
أما الرياض فلو بدت لسطوره ... لتوهّمتها روضها المنضودا
لولا أبو العباس يرخص وشيه ... لم أكس شعري من سواه برودا
متفرد مذ كان بالأدب الذي ... يهدي إلى الأسماع منه فريدا
ومهذب مازال تاج فخاره ... مذ صيغ فوق جبينه معقودا
تبلى العلوم فما اكتسى من بزّها ... عاد الذي قد رثّ منه جديدا
لازال منشور العلا من طيّه ... أبداً عليه مطنباً ممدودا (٥٤)

في هذا النص المدحي نرى أنّ الشاعر قد وفّق في ربط الأبيات حتى بدت متماسكة في مديح صديقه الذي صرّح باسمه ، إذ مدحه بأنّه ممدوح بين الناس ، وقد وصل إليه صنيعه الجميل الذي كان يهديه إليه وهي كتابة الشعر ، الأمر الذي فرض على الشاعر بأنّ يمدحه بالصنعة التي تميز بها وهي حرفة الكتابة ، أي الخط الذي كان يكتب به شعراً ، إذ كان الممدوح يمتلك خطّاً رائعاً وقد شبه الشاعر خطّه بالقلائد والعقود ، إذ وصف اللامات والألفات بالسوالف والقدود ، وهذا تشبيه يسبغ على النص فنية عالية في التعبير تجعل المتلقي يتوق

لسماعه .

ويستمر الشاعر في تعداد صفات ذلك الخط الذي يتفنن فيه صاحبه ، إذ يصفه بالرياض المنضودة الجميلة ، ثم يثني عليه ويقول لولا أبو العباس لم يكن شعري موجوداً إلى نهاية القصيدة التي تناول فيها الشاعر صفات الكاتب وجمالية خطّه وأخلاقه المهذبة ؛ لذلك هو يستحق هذا المديح .

يُلحظ أنّ اتجاه عاطفة الشاعر لممدوحه هي انعكاسٌ لعالم الشاعر باستعمال ((بناء قوي يتمتع بتوظيف أكبر قدر من براعة الشاعر في استخراج امكانات اللغة بمستوياتها الصوتية والدلالية خلال سياقات متباينة يراد منها تصوير موقف له خصوصية بالتفرد)) (٥٥) ؛ لأنّ الشاعر خصّ الممدوح بتفرده بمزية الخط الجميل ، الأمر الذي جعل صديقه يمدحه بهذه الصنعة دون غيرها ، لذا كان في المديح ميزة قريبة من نفسية الممدوح ، إذ أظهر الشاعر حبّه للممدوح الذي كساه جميل الجود في هذه الصنعة التي أسبغت عليه جميلاً يفرض عليه هذا المديح لممدوحه الذي أكرمه في كتابة شعره ؛ لقوّة علاقة الصداقة بينهما .

وقال الصوري يمدح أبا الحسن بن النحوي الخطيب ﴿الكامل﴾ :

من يشتري أبداً بسالم ماله ... من جوده مجداً بحيث المشتري
فكأنّه المعذور فيما تحتوي ... يده فإن لم يفنه لم يعذر
وكأنّما يده تكاد لبذلها ... تعدي لجودها عود المنبر
ذو غرّةٍ أضحت تدلُّ على الندى ... كالبرق دلّ على السحاب الممطر
ذو غرّةٍ أضحت تدلُّ على الندى ... كالبرق دلّ على السحاب الممطر

من المعروف أنّ الكرم والعطاء الذي يغدقه الممدوح غالباً ما يرتبط بقضايا مادية ، فبعض الناس يكرم بالمال وبعضهم بالعطية أو الهدية ، وهذه هي مزية الكرم المشهورة بين الناس ، لكن الشاعر في مقطوعته التي مدح فيها صديقه

قد ابتدع صورةً جديدةً وجميلةً للكرم ، إذ جسّد كرم صديقه بالخطاب ، والخطابة هي الصنعة التي تميّز بها ذلك الصديق، فهو يكرم بحسن خطابه وقوله .

والشاعر صوّر جود يده ولكنه لم يقصد بذلك الجود المادي وإنّما قصد جوده المعنوي ، الذي يتجلّى بحسن خطابه، وبذلك قد أعطى للخطاب الذي له قيمة معنوية قيمةً ماديةً، وأنّه مما يجود به الإنسان من الكرم والندى ، وقد جعل الخطاب من فعل اليد وكرمها ، فالشاعر لم يقصر الكرم بما تجود به الأيادي من عطيةٍ أو هديةٍ بل تجاوزها إلى حسن القول والخطابة ، حتى تكاد تلك الأيادي المعطاءة تعدي عود المنبر ؛ لقوّة تأثيرها فيه نتيجة الملازمة التي تكون بين الخطيب والمنبر ، فكيف هو الحال بمن هو مدركٌ لذلك الخطاب الحسن ومن يعي ذلك القول الجميل ، وإن لم يشر الشاعر إلى هذا المعنى .

كما أنّه ذو غرّةٍ أضحت تدلُّ على الكرم ، كما يدلُّ البرق على السحاب الممطرالذي تحيا به الأرض ، وعلى الرغم من أنّ الشاعر ابتدع طريقة جديدة في وصف كرم ممدوحه إلا أنّه لم يختلف عمّن سبقه من الشعراء في وصف الكريم وقرنه بالسحاب الممطر ، فصورته الشعرية مستمدةٌ من الموروث الشعريّ المدحيّ المشهور في الشعر العربيّ .

وقد أكثر الشاعر في مدحته من أدوات التشبيه ؛ لأنّ التشبيه هو أظهر وسائل تصوير المعنى وعرضه في صورٍ متنوعةٍ ؛ في محاولة منه لجذب النفوس وإمالتها وتأثرها بتلك التشبيهات التي تفخم المعنى وتمنحه طابعاً تأثيراً وانفرادية في التصوير (٥٧) .

وله أبيات أخر يمدح فيها صديقاً يعمل منجماً ، قال فيها ﴿المتقارب﴾ :

صـــديق لنـــا عـــالم بـــالنجوم   يحـــــدِّثنا بلســـــان الملـــــك
ويكــــتم أســــرار إخوانــــه   ولكــن يــنمُّ بســرِّ الفلــك(٥٨)

إنّ حرفة التنجيم لها رجالات متخصِّصة بها ، تقوم بقراءة الفأل والتنبؤ بأحداث الفلك وغيرها من الأمور الخاصة بالتنجيم ، التي تعدُّ حرفةً من الحرف التي مدح الشعراء أصحابها كالكتابة التي مرّ ذكرها آنفاً ، وضمنت من ضمن المنجز الإبداعي ، لكونها تتعلق بالإبداع وإعمال الذهن .

فالشاعر يصف ممدوحه بأنّه عالمٌ بالنجوم ، وأنّه يتحدث بلسان الملائكة ؛ كون التنجيم غالباً ما يكشف عن أمورٍ غيبيةٍ وكأنّ الملائكة هي التي تخبره بذلك ، وهو هنا يصف مهنة هذا الصديق ، لكنه جعل حديثه مديحاً ؛ لأنّه أشار إلى علم هذا الصديق العالم بالفلك ، وهو على قدرته على معرفة أسرار أصدقائه وأصحابه ، ولكنه يكتم ذلك إكراماً لهم ويكشف أسرار الفلك ؛ لأنّها تكشف عن درايته وعلمه بأمور صنعته وهي التنجيم .

ويعدّ هذا النوع من المديح مظهراً من مظاهر المديح الاجتماعي ؛ كون هذه المدحة تخصّ إنساناً من عامة الشعب ، الأمر الذي جعل الشاعر يميل إلى البساطة في التعبير وعدم التكلف واختيار الألفاظ الرنانة ؛ لأنّ الشاعر لا يتوقع من ممدوحه عطاءً أو هبةً، كما هو الحال عند مديح شخصيةٍ سياسيةٍ أو ذي مكانةٍ مرموقةٍ في المجتمع .

وبذلك فقد شاع ضربٌ جديدٌ من المديح ، وهو المديح بالمنجز الإبداعي المتجلّي في نظم الشعر وحسن توظيف الأساليب البلاغية والخطابة وحسن القول والكتابة وجمال الخط ، وبذلك لم تقتصر صور المديح في القرن الخامس الهجري على قيم الكرم والشجاعة ورجاحة العقل والعفّة والقوّة ، بل تعدتها إلى قيم الإبداع الذهني وحسن التأليف والكتابة .

ملخص البحث :

يعدُّ الاتجاه الاجتماعي من أبرز اتجاهات المديح ؛ لأنّ الشعر هو الذي يصوّر ما في الحياة بتفاصيلها كافة ، فهو يرتبط بالحياة ويتفاعل معها ويصورها

بمراحلها كلها ، بوصفه ظاهرة اجتماعية في حقيقتها غاية جماعية لا فردية ، وللعلاقات الاجتماعية أثر في نفس الشاعر ، فهو يقيم هذه العلاقات مع أبناء مجتمعه ويصورها في شعره وفي المديح منه بخاصة .

لقد أبان الاتجاه الاجتماعي مستوى العلاقات الاجتماعية بين الشعراء والناس الآخرين ، وكان المديح الأسري على رأس هذا الاتجاه ؛ لما أودع الله في النفوس من رأفة وعاطفة تجلل الأسرة وترفع من شأنها ، وكذلك مديح الأصدقاء ، إذ مدح بعض الشعراء أصدقاءهم ، إيماناً منهم بآصرة الصداقة التي لم يغفل عنها الشعراء ، وفي هذا الاتجاه تحرّر الشاعر من آليات الوقوف أمام ذوي السلطان والتكلف في اختيار الألفاظ والمعاني ، إذ كانت لغة الشعر بسيطة وواضحة ؛ لتبين عمق الروابط الاجتماعية بعيداً عن المبالغة والتصنع .

Abstract

Social tendency is one of the most distinguished directions of praise. Poetry expresses life in details; it relates life, interacts with it and portrayed it with all its phases and stages as a social phenomenon that represents a mass aim. Social relations have a deep effect on poet; he evaluates these relations and portrayed them in his poetry especially in praise.

Social tendency shows the social relations levels among poets and other peoples. Family praise was the first of this tendency due to the passion that God has entrusted to Man which promotes the family. Believing in friendship relation, the poets had praised their friends where the poets had freed from exaggeration and from using the artificial terms in front of the sultan or his relatives, so the poetry language was simple And clear in order to show the clearness and deepness of the social relations away from exaggeration and artificiality.

هوامش البحث

١. ظ: الشعر بين الواقع والإبداع: ٦٦ .
٢. لاشعر والفكر المعاصر: ٥ .
٣. مجلة التربية والمجتمع والثقافة ، العدد (٥): ٧ .

٤. الأحقاف: ١٥ .
٥. ديوان الشريف الرضي: ٩٢/١-٩٣ ، الجناجن: عظام الصدر .
٦. ظ: العمدة: ١٣٠/١ .
٧. ديوان الشريف المرتضى: ١٥٢/١ ، الحسين: والد الشريف الرضي ، الصفا: الحجر ، الحباء: العطاء ، القرا: الظهر .
٨. ظ: فنّ التشبيه: ٦١/٣ .
٩. ديوان الشريف المرتضى: ٢٨٢/٢ ، الحسين: يقصد أباه ، الحفيظة: الذمام أوالحقّ الواجب حفظه ، الأروع: السيد الحسن ، الجَنَان: القلب ، العرد: الهرب ، الأربة: الحاجة يريد الإنسان قضاءها .
١٠. ظ: الصورة الفنية في شعر أبي تمّام: ١٨١ .
١١. ظ: محاضرات في عنصر الصدق في الأدب: ٣٧ .
١٢. ديوان الشريف المرتضى: ٢٠٠/٢ ـ ٢٠١ ، لطيّه: يقصد بذلك طيّ الليل ، الجمّ: الجمع ، الطارق: الآتي ليلاً ، الشارق: الذي يغصُّ بالماء ، السماكان: نجمان لامعان ، السامق: العالي ، المزاد: القربة ، الفواهق: الممتلئات .
١٣. ظ: وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي: ٤٣ .
١٤. ديوان الشريف الرضي: ٣١٣/١ ـ ٣١٥ ، الصياخيد: الواحدة صيخود ، وهي الصخرة الشديدة .
١٥. ظ: صفات الشعر في النقد الأدبي عند العرب في العصر العباسي ، رسالة ماجستير: ١٥٠ .
١٦. الخصائص: ٢١٦/١ .
١٧. ديوان الشريف الرضي: ٤٦٠/١ ، المنآد: المنحني ، المنعطف ، المنأطر: المنثني .
١٨. ظ: دراسات في النص الشعري: ١٩٨ .
١٩. ديوان الشريف المرتضى: ٤٢٩/٢ .
٢٠. ظ: جدلية الخفاء والتجلّي: ١٧٦ .
٢١. ديوان الشريف المرتضى: ٤٠٢/١ .
٢٢. فنّ الوصف وتطوره في الشعر العربي: ٢٤٧ .
٢٣. ظ: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٣٥٥/٤ .
٢٤. ديوان الشريف الرضي:٩٨/١ .

٢٥. المصدر نفسه: ٤٦٣/١ ، يعثن: يدخن ، القَصَر: أصول الأعناق ، المعزّز: المعين أو النصير ، الخور: الضعف ، الوقر: الثقل ، الغمر: شدّة الشيء ومزدحمه .
٢٦. ظ: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٩٧/٥ .
٢٧. ديوان الشريف المرتضى: ٢٠٤/٢ ، اعتلج القول: ازدحم وتلجلج ، المسلاق: الفصيح البليغ .
٢٨. دلائل الإعجاز: ٨٧ .
٢٩. سقط الزند: ٢٠٣ ، سارتك: بارتك في السرى وهو سير الليل ، الخوامع: الضباع ، الموامي: الأرض المقفرة.
٣٠. ظ: الطراز: ٧٥/١ .
٣١. ديوان الشريف الرضي: ١٠٥/١ .
٣٢. البناء الفني في قصيدة الحماسة العباسية: ٢١٣ .
٣٣. ظ: الصورة الشعرية: ٥٢ .
٣٤. ديوان الشريف المرتضى: ٢٧٣/٢ - ٢٧٧ ، العلق: الدم ، العوامل: الرماح ، الصياقل: جمع (صيقل) وهو صانع السيوف ، الروافل: الذي يمشى يجر أذياله متبختراً ، القساطل: جمع (قسطل) وهو غبار الحرب ، المناصل: السيوف ، الطوائل: العداوة
٣٥. نقد الشعر : ٢٠ .
٣٦. ديوان مهيار الديلمي: ١ - ٣ .
٣٧. النقد الأدبي الحديث: ٣٨٣ .
٣٨. ديوان الشريف المرتضى: ٢/ ٥٣٥ - ٥٣٧ ، محمد بن خلف النيرماني أصله من قرية نيرمان قرب مدينة همذان ، عرف بالنيرماني نسبةً إليها ، وكان من جلّة الكتّاب الفضلاء والرؤساء النبلاء ، وكان كاتباً بديوان بني بويه ، صنّف لبهاء الدولة ((المنثور البهائي)) في مجلدٍ وهو نثر كتاب الحماسة ، وقد أثنى عليه الثعالبي في يتيمة الدهر ، توفي سنة (٤١٤هـ) ، ظ: فوات الوفيات: ٧٥/٢٠ ، تاريخ بغداد: ٥٢/١ ، دمية القصر: ١٠٢/١ ، زهى: فخر ، الورد: من الخيل ما بين الكميت والأشقر ، الملوان: الليل والنهار ، الأيم: التي لا روح لها .
٣٩. قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني: ١٤٧ .
٤٠. ظ: دلائل الإعجاز: ٨٧ .
٤١. ديوان صرّدر: ٢٦٢ ، الأنقاس: جمع (نِقس) بكسر النون ، وهو الحبر .
٤٢. الصّدق الفنيّ في الشّعر العربيّ حتّى نهاية القرن السّابع الهجريّ: ٣١ .

٤٣. سقط الزند: ١٢٣ ، العاب: العيب ، الأري: العسل ، الصاب: شجر مرّ له عصارة بيضاء ، الآراب: الأمنية ، النَّوْر: زهر صغير أبيض اللون .
٤٤. ظ: الأسلوبية والأسلوب ، عبد السلام المسدي: ١١٧ .
٤٥. ظ: ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث: ٢٧ .
٤٦. ديوان الباخرزي: ١١١ ـ ١١٢ ، كمال الملك محمد بن أحمد المختار الزوزني ، كان من أصدقاء الباخرزي وكان يعمل في الإنشاء في حكم الب أرسلان (٤٥٥هـ ـ ٤٦٥هـ) ، ظ: دمية القصر: ٢٢/٢.
٤٧. ظ: العمدة: ٩٨/١ ـ ٩٩ .
٤٨. ديوان الصوري: ٢٨٣ .
٤٩. الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ٩ ، ظ: أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل البياني: ٤٥٥.
٥٠. ديوان الثعالبي: ١١٣ .
٥١. الصورة الشعرية: ٩١ .
٥٢. ديوان الباخرزي: ١١٣ ، أبو القاسم بكر بن المستعين ، كان محرر ديوان الرسائل للأمير محمد بن محمود الغزنوي إبان رئاسة أبي بكر الفهستاني ، ثم صار رئيساً للديوان في زمان سلطته طغرلبك السلجوقي ، ظ: دمية القصر: ٢٢/٢ ، رغا البكري: صوّت ، والبكري ولد الناقة .
٥٣. ظ: مدخل إلى علم الأسلوب: ٧٨ .
٥٤. ديوان الشريف العقيلي: ١٢٢ .
٥٥. وظيفة الناقد الأدبي بين القديم والحديث: ١٨٢ .
٥٦. ديوان الصوري: ٢٠٩ .
٥٧. ظ: فنون التصوير البياني: ١٣٨ .
٥٨. ديوان الثعالبي: ٩٩ .

قائمة المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم .
❖ الأسلوبية والأسلوب ، نحو بديل ألسني في نقد الأدب :
عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، ط١ ، تونس ، ١٩٧٧م .
❖ الباخرزي حياته وشعره وديوانه :
تأليف وتحقيق: د.محمد التونجي ، دار صادر ، د.ط ، بيروت ، ١٩٩٤م .

❖ البناء الفني في قصيدة الحماسة العباسية :
د.سعيد حسون العنبكي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط١ ، بغداد ، ٢٠٠٨م .
❖ تاريخ بغداد أو مدينة السلام :
أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) ، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٧م .
❖ جدلية الخفاء والتجلي :
كمال أبو ديب ، دار العلم للملايين ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٧م .
❖ الخصائص :
أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) ، تحقيق: محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي عن طبعة دار الكتب المصرية ، د.ط ، د.م ، ١٩٥٧م .
❖ دراسات في النص الشعري ، عصر صدر الإسلام وبني أمية :
د.عبده بدوي ، منشورات ذات السلاسل ، د.ط ، الكويت ، د.ت .
❖ دلائل الإعجاز :
عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ، د.ط ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
❖ دمية القصر وعصرة أهل العصر :
أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي (ت٤٧٦هـ) ، تحقيق: سامي مكي العاني ، دار العروبة للنشر والتوزيع ، د.ط ، الكويت ، ١٩٨٥م .
❖ ديوان الثعالبي (ت٤٣٠هـ) :
دراسة وتحقيق: محمود عبد الله الجادر ، كلية الآداب / جامعة بغداد ، ط١ ، بغداد ، ١٩٩٠م .
❖ ديوان الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ) :
منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي ، د.ط ، د.م ، ١٤٠٦هـ .
❖ ديوان الشريف العقيلي (ت٤٨٠هـ) :
تحقيق: زكي المحاسني ، دار إحياء التراث العربية ، د.ط ، القاهرة ، د.ت.
❖ ديوان الشريف المرتضى :
شرح: د.محمد التونجي ، دار الجيل ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٧م .
❖ ديوان الصوري (ت٤١٩هـ) :
تحقيق: مكي السيد جاسم ، شاكر هادي نهر ، د.ط ، د.ت .

❖ ديوان صرّدر (ت٤٧٦هـ) :
تحقيق ودراسة: د.محمد سيد علي عبد العال ، مكتبة الخانجي ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٨م .
❖ ديوان مهيار الديلمي (ت٤٦٧هـ) :
تحقيق: د.أحمد نسيم ، دار الكتب المصرية ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٣٠م .
❖ سقط الزند :
أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرّي (ت٤٤٩هـ) ، قدم له وضبطه وشرحه: د.صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، د.ط ، بيروت ، ٢٠٠٧م .
❖ الشعر بين الواقع والإبداع :
صبيح ناجي القصاب ، دار الرشيد للنشر ، سلسل دراسات(١٦٦) وزارة الثقافة والإعلام ، د.ط ، بغداد ، ١٩٧٩م .
❖ الشعر والفكر المعاصر :
مجموعة باحثين ، وزارة الإعلام ، سلسلة كتاب الجماهير(٧١) ، د.ط ، بغداد ، ١٩٧٤م .
❖ الصدق الفني في الشعر العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري :
د.عبد الهادي خضير نيشان ، دار الشؤون الثقافية ، ط١ ، بغداد ، ٢٠٠٧م .
❖ الصورة الشعرية :
سيسيل دي لويس ، ترجمة: أحمد نصيف الجنابي ، ومالك ميري ، وسلمان حسن إبراهيم ، مراجعة: عناد غزوان ، دار الرشيد للنشر ، د.ط ، بغداد ، ١٩٨٤م .
❖ الصورة الفنية في شعر أبي تمام :
عبد القادر الرباعي ، جامعة اليرموك/الأردن ، ط١ ، أربد ، ١٩٨٠م .
❖ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز :
يحيى بن حمزة بن إبراهيم العلوي (ت٧٤٩هـ) ، تصحيح: سيد علي العرضي ، دار الكتاب الخديوية ، مطابع المقتطف ، د.ط ، د.م ، ١٩١٤م .
❖ ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث :
علاء الدين رمضان السيد ، اتحاد الكتّاب العرب ، د.ط ، دمشق ، ١٩٩٦م .
❖ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده :
أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط٤ ، بيروت ، ١٩٧٢م .
❖ فنّ التشبيه :
علي الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، د.ط ، القاهرة ، د.ت .

❖ فنّ الوصف وتطوره في الشعر العربي :
إيليا حاوي ، دار الكتاب اللبناني ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨٠م .
❖ الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي :
د.شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٧ ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
❖ فنون التصوير البياني :
توفيق الفيل ، منشورات ذات السلاسل ، د.ط ، الكويت ، ١٩٨٧م .
❖ فوات الوفيات :
محمد بن شاكر الحلبي (ت٧٦٤هـ) ، د.ط ، القاهرة ، ١٩٥١م .
❖ قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني :
د.أيمن محمد زكي العشماوي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٣م .
❖ محاضرات في عنصر الصدق في الأدب :
محمد النويهي ، معهد الدراسات العربية العالمية ، د.ط ، د.م ، ١٩٥٩م .
❖ مدخل إلى علم الأسلوب :
شكري عياد ، دار العلوم للطباعة والنشر ، د.ط ، الرياض ، ١٩٨٢م .
❖ المستفاد من ذيل تاريخ بغداد :
ابن الدمياطي شهاب الدين أبو الحسين أحمد بن عز الدين المصري الشافعي الجندي (ت٧٤٩هـ) ، تحقيق: محمد مولود خلف ، ط١ ، د.م ، ١٩٨٠م .
❖ المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام :
جواد علي ، دار العلم للملايين ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٠م .
❖ النقد الأدبي الحديث :
د.محمد غنيمي هلال ، دار الثقافة ، د.ط ، بيروت ، ١٩٧٣م .
❖ نقد الشعر :
قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) ، مطبعة السعادة ، د.ط ، مصر ، ١٩٦٣م .
❖ وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي :
حياة جاسم ، مطبعة الجمهورية ، د.ط ، بغداد ، ١٩٧٢م .
❖ وظيفة الناقد الأدبي بين القديم والحديث :
د.سامي منير عامر ، منشأة المعارف المصرية ، د.ط ، مصر ، د.ت .
ـ الدوريات :
❖ مجلة التربية والمجتمع والثقافة :
د.عبد الله الذيفاني ، مجلة دراسات اجتماعية ، العدد (٥) ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٧٩م